اسلوب المؤرخين العرب

في كتابة التاريخ

لو دققنا النظر في دراستنا للأساليب التي يتبعها بعض المؤرخين المعاصرين من العلماء الغربيين في تآليفهم لحققنا انهم يعتقدون أنّ التاريخ سلسلةُ حركات مستديمة متصلة يأخذ بعضها برقاب بعض فلا يعتبرون السنة مركزاً لابحاثهم كما فعل الطبري وابو الفدا ولا يجعلون كلامهم على الخلفاء والامراء والوزراء والسلاطين كابن الطقطقي في كتابه الفخري او المقري او اليعقوبي ولا ينظمون عقد مؤلفاتهم في البحث على الامكنة كابن عساكر في كتابه المشهور عن دمشق او الازرقي في كتابه عن مكة ولا يجمعون الاخبار والروايات التي تصف الحادثات والوقائع والفتوح ولا يرتّبون الحقائق التاريخية حول المواضيع المختلفة التي لا علاقة عقلية ولا منطقية تربطها بعضها ببعض

١ — الكتابة حول المواضيع المختلفة

فالمسعودي بينا تراهُ يصف هيئة الارض وجغرافيتها الطبيعية إذا به يُسهب في ذكر الآثار القديمة من الابنية والمساكن ثم يتطرق إلى البحث عن الامم السالفة من المصريين والفارسيين والاغريقيين ويستطرد خلال ذلك الى الكلام على الانبياء والرسل حتى يصل الى حياة الرسول (ص) والصحابة والخلفاء وهو يُقِرّ علناً بذلك في مقدمته فيقول

« أما بعد فانّا صنفنا كتابنا في « اخبار الزمان » وقدمنا القول فيه في هيئة الارض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وانهارها وبدائع معادنها وأصناف منابتها واخبار غياضها وجزائر البحار والجزيرات القفار واخبار الابنية المعظمة والمساكن المشرّفة وذكر شأن المبدإ واصل النسل وتباين الاوطان وما كان نهراً فصار بحراً وما كان بحراً فصار برّاً وما كان برّاً فصار بحراً على مرور الايام وكرور الدهور وعلة ذلك وسببهُ الفلكي والطبيعي وانقسام الاقاليم بخواص الكواكب ومعاطف الاوتاد ومقادير النواحي والآفاق وتباين الناس في التاريخ القديم واختلافهم في بدئه واوليته من الهند واصناف الملحدين وما ورد في ذلك عن الشرعيين وما نطقت به الكتب وورد على الدهريين ثم اتبعنا ذلك باخبار الملوك الغابرة والامم الداثرة والقرون الخالية والطوائف

البائدة على مرّ سيرهم في تغيّر اوقاتهم وتضيف اعصارهم من الملوك والفراعنة العادية والاكاسرة واليونانية وما ظهر من حكمهم ومقائل فلاسفتهم واخبار ملوكهم واخبار العناصر الى ما في تضاعيف ذلك من اخبار الانبياء والرسل والانقياء الى ان افضى الله بكرامته وشرّف برسالته محمداً نبيهُ صلى الله عليه وسلم فذكرنا مولدهُ ومنشأهُ وبعثتهُ وهجرتهُ ومغازيهُ وسراياهُ الى اوان وفاته واتصال الخلافة واتساق المملكة بزمن زمن ومقاتل من ظهر من الطالبيين الى الوقت الذي شرعنا فيه تصنيف كتابنا هذا من خلافة المتقي لله امير المؤمنين وهي سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة »(١)

والمطالع المدقق في كتاب الكامل لابن الاثير يشهد انّ المؤلف حذا حذو المسعودي فجعل مواضيع الوقائع والحادثات نقطةَ الدائرة في ترتيبه لتأريخه وهو ينتقد الذين يذكرون الحوادث حسب السنين اذ تأتي مقطّعةً لا تُفهَم الاّ بعد الروية وامعان الفكر فيظهر لقارئهِ في مقدمتهِ الاسلوب الذي اتبعهُ في تأليفهِ فيقول

« ... اما بعد فاني لم ازل محباً لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها موثراً للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيها مائلاً الى المعارف والآداب والتجارب المودعة في مطاويها فلما تأملتها رأيتها متباينة في تحصيل الغرض يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل الى العرض فمن بين مطوّل قد استقصى الطرق والروايات ومختصر قد أخلّ بكثير مما هو آت ومع ذلك فقد تركَ كلهم العظيم من الحادثات والمشهور من الكائنات وسوّد كثير منهم الاوراق بصغائر الامور التي الاعراض عنها اولى وترك تسطيرها احرى كقولهم خلع فلان الذمي صاحب العيار وزاد رطلاً في الاسعار واكرم فلان واهين فلان وقد ارخ كل منهم الى زمانهِ وجاء بعدهُ من ذيل عليهِ واضاف التجددات بعد تاريخهِ اليهِ والشرقي منهم قد اخلّ بذكر اخبار الغرب والغربي قد اهمل احوال الشرق فكان الطالب اذا اراد ان يطالع تاريخاً احتاج الى مجلدات كثيرة وكتب متعددة مع ما فيها من الاخلال والاملال فلما رأيت كذلك شرعتُ في تأليف تاريخ جامع لاخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ليكون تذكرةً لي اراجعهُ خوف النسيان وآتي فيهِ بالحوادث والكائنات من اول الزمان متتابعةً يتلو بعضها بعضاً الى وقتنا هذا . . . . . ورأيتهم ايضاً يذكرون الحادثة الواحدة في سنين و يذكرون منها في كل شهر اشياء تتأتى الحادثة متقطعة لا يحصل منها على غرض

(١) مقدمة مروج الذهب ومعادن الجوهر ص ٢ — ٣

ولا تُفهم الأ بعد إمعان النظر فجمعت أنا الحادثة في موضع واحد وذكرت كل شيء منها في اي شهر او سنة كانت فأتت متناسقة متتابعة قد اخذ بعضها برقاب بعض وذكرت في كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها فاما الحوادث الصغار التي لا يحتمل منها كل شيء ترجمة فانني افردت لجميعها ترجمة واحدة في آخر كل سنة فاقول ذكر عدة حوادث واذا ذكرت بعض من تبع وملك في قطر من البلاد ولم تطل ايامهُ فانني اذكر جميع حالهِ من اولهِ الى آخرهِ عند ابتداء امرهِ لانهُ اذا تفرق خبرهُ لم يعرف للجهل بهِ وذكرت في آخر كل سنة من تُوفي فيها من مشهور العلماء والاعيان والفضلاء وضبطت الاسماء المشتبهة المؤتلفة في الخط المختلفة في اللفظ الواردة فيهِ بالحروف ضبطاً يزيل الاشكال و ينفي عن الالتباط والاشكال»(١)

وكان الدينوري صاحب «الاخبار الطوال» قد بدأ بذكر الانبياء من لدن آدم حتى توصل الى البحث عن الملوك العجم والخلفاء المسلمين وفتوحاتهم والفتن التي اشتعلت نيرانها في عصورهم فهو يبني تاريخه على كل ما جرى من الحادثات المشهورة والايام المنظورة فيفصلها تحت عنوانين الاكاسرة والسلاطين والامراء فيشبه بذلك ابن الاثير في الاسلوب الذي انتهجهُ والطريقة التي تمشى عليها ونبتدئ مقدمتهُ بخطبتهِ فيقول

«... فيهِ ذكر ملوك الارض من لدن آدم عليهِ السلام الى انقضاء ملك يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز وذكر من ملك من ملوك قحطان وملوك الروم وملوك الترك في كل عصر واوان وذكر الائمة والخلفاء والحروب التي كانت مثل يوم القادسية وفتوح العراق وانصرام دولة العجم وحرب الجمل وصفين و يوم النهروان ومقتل الحسين بن علي عليهِ السلام وفتنة ابن الزبير وخروج الازارقة وحروبهم وايامهم وخبر المختار بن ابي عبيد وقصتهِ وسبب خروجهِ وخروج عبد الرحمن بن الاشعث على الحجاج وما كان بينهما وذكر خلافة عبد الملك والوليد ابن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز الى انقضاء ملك بني امية وخبر الدولة العباسية وقصة ابي مسلم الى خلافة المنصور و بنائهِ مدينة بغداد وايام الخلفاء من بعدهِ الى انقضاء امر محمد الامين وخبر المأمون الى آخر ايام المعتصم وخبر بابك وحروبهِ مختصراً من اليهِ مقتصراً على الاقتصاد.»(٢)

(١) مقدمة الكامل لابن الاثير ص ٢ — ٣
(٢) مقدمة الاخبار الطوال للدينوري ص ٢

اما الامام الفقيه ابي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة صاحب كتاب « المعارف » « وأدب الكاتب » فكان يظن ان التاريخ يشتمل على فنون متنوعة من الآداب والمعارف فيروي لنا في كتابه (المعارف) شيئاً عن مبتدإ الخلق وقصص الانبياء وأعقابهم ومنازلهم في المغرب والمشرق وأخبار الرسول واحوال ازواجه وأقاربه ومغازيه ثم لا يلبث ان يتكلم عن الصحابة والمهاجرين وخلفاء بني امية والخلفاء العباسيين والمحدثين والحكماء والكتّاب والنحويين والاخباريين ورواة الشعر واصحاب القراآت في ايامهم و يصف اشهر المساجد في الحجاز والعراق والشام و يتطرق بعد ذلك الى البحث عن جغرافية بلاد العرب وما بين النهرين والسودان وعن الفتوح العربية وأديان العرب في الجاهلية وصناعات اشرافهم واصحاب العاهات فيهم وايامهم والاقوام التي جرى المثل باسمائهم و يخبرنا اخيراً عن الاكاسرة وعلاقة العرب الخميين بهم . فترى ان الرجل لم يكن يضع خطةً معلومة امامهُ حينما يكتب التاريخ بل يجمع ما تيسر لهُ عن كل المواضيع التي يدعونها « معارف » دون ان يكون ثمة علاقة بينها فكتابهُ اشبهُ شيء بكشكول اخبار وهو يمثل لنا الجماع في التاريخ فبينا تراهُ منهمكاً بذكر بني العباس اذا بهِ يرجع فيصحح جغرافيًّا فيصف بلاد العرب ثم اخباريًّا فيقص علينا ما شاء الله أن يفعل من قصص البرص والعرج والعمى والجدع والصلع والعور الخ حتى يتساءل قارئهُ « تُرى اي علاقة لهؤلاء بمجاري التاريخ التي تصل الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل» ولماذا لم يعطف على اصحاب الظرف والفكاهة وارباب الجمال والدعابة فيُفرح قارئهُ بأخبارهم و يسر خاطرهُ باطايب احاديثهم بدلاً من ان يحزنهُ بتذكيره بأصحاب العاهات. والحاصل انَّ ابن قتيبة أراد ان يكتب التاريخ فكتب كل شيء وقعت عيناهُ عليهِ او سمعهُ او درسهُ على مشايخهِ او ظفر بهِ حين الدرس والمطالعة فهو يمثل لنا ذلك الجماع من المؤرخين الذين يهضمون كل حقيقة و يأتون على كل شاردة وواردة

وهاك جانباً من مقدمتهِ التي يصف لك بها خطتهُ في كتابة التاريخ

« يشتمل على فنون كثيرة من المعارف اولها مبتدأ الخلق وقصص الانبياء وازمانهم واعمارهم وأعقابهم وافتراق ذراريهم ونزولهم بشارق الارض ومغاربها واسياف البحار والفلوات والرمال الى ان بلغت زمن المسيح والفترة بعدهُ . ووصلت ذلك بذكر انساب العرب مختصراً ومتقصراً على العالم ومشهور البطون ثم اتبعتهُ

أخبار رسول الله في نسبه وذكر عمومته وعماته وجداته لأبيه وأمه واظآره وازواجه واولاده ومواليه واخوانه في مولده ومبعثه ومغازيه الى ان قبض واخبار العشرة من المهاجرين ثم الصحابة المشهورين ثم الخلفاء من لدن معاوية بن ابي سفيان الى احمد بن محمد بن المعتصم المستعين بالله والمشهور من صحابة السلطان والخارجين عليهم من الخوارج ثم التابعين ومن بعدهم من حملة الحديث واصحاب الرأي ومن عُرف منهم بالترفض والتشيع والارجاء والقدر واصحاب القراآت من اهل الحجاز ومكة والعراق والشام والنسابين واصحاب الاخبار ورواة الاشعار واصحاب النحو والمعلمين والمتهاجرين من الصحابة والتابعين وأول من احدث شيئاً بقي على مرور الايام . وذكرت المساجد المشهورة كالكعبة وبيت المقدس ومسجد المدينة ومسجد البصرة ومسجد الكوفة ومسجد دمشق ومتى ابتنيت وعلى يد من اسست ودللت على جزيرة العرب وحدود السودان والجزيرة بين دجلة والفرات وحدود نجد والحجاز وتهامة — واخبرت عن الفتوح وما كان منها عنوة وما كان عن صلح وعمن جُمع له العراقان وعن فرق ما بين المهاجرين الاولين والمهاجرين الآخرين وعن المخضرمين وعن سبب اضعاف الصدقة على نصارى بني تغلب وعن اديان العرب في الجاهلية وعن مساعات الاشراف في الجاهلية وعن أهل العاهات الذين كثرت فيهم وعن البرص والعرج والصم والجدع والجذمى والحول والزرق والعُقم والكراسيج والصلع والبخر والعور والمكافيف وعن المنسوبين الى غير عشائرهم وآبائهم وعن المسمين بكناهم وعن ذكر الطواعين واوقاتها وعن الايام المشهورة مثل يوم ذي قار والفجارين وحلف الفضول وحلف المطيبين وحرب بكر وتغلب او حرب داحس والغبراء وعن قصص قوم جرى المثل باسمائهم مثل قوس حاجب و باقل وقرطا مارية وخريم الناعم وحجام سابلط وشقائق النعمان وحديث خرافة و يرجان العمى وصحبان ودائل الخطيب وطفيل القدح يُنسب اليه الطفيليون .... ومواعيد عرقوب وخفي حنين وعطر منشم وأخبرت عن ملوك الجبرة والزدافة وعن ملوك فارس ملكاً ملكاً ومددهم وجمل من سيرهم[1] »

دار المعلمين — بغداد انيس زكريا النصولي

(١) مقدمة كتاب المعارف لابن قتيبة الدينوري ص ١ — ٢ — ٣ — ٤